قال الحافظ جلال الدين السُّيُوطِيّ : وكان يقول : أنا حنفيُّ الأصُولِ ، شافعيُّ الفروع . وكان يستحضر المذهبَيْن ، ويُفْتِي فيهما .

وقال تلميذُه ، الوَلِيُّ العِراقِيُّ : أخبرنى أنَّه كان يُفْتِى فى بلادهم على مذهب أبى حنيفة أيضا ، وكان يستحْضِرُه . وكان يقول : أنا حنفيُّ الاعتقاد والعبادات ، رَبَّانِى أبى على ذلك . وكان لا يرفع يدَيْه فى ركوع الصلاة وسُجودها . انتهى .

قلتُ : حيث كان الشيخ ، رحمه الله تعالى ، مُفَنَّنا لمعرفة مذهب أبى حنيفة ، حافظا لأُصوله وفروعه ، عاملا بهما فى اعتقاداته وديانَاته ، فالأَلْيَقُ به أن يُذكر فى طبقات السّادة الحنفيّة ، لا فى طبقات الشافعيَّة ، وكَوْنُه يعرف مذهب الشافعيِّ أيضا ، ويُفْتِى فيه لمن سأله ، لا يمنع من ذلك ، فإنَّما هو زيادةُ علم وفضيلة ، وهو بمنزلة مَن يعرف مذهبَيْن أو أكثر ، ولكن يعتقِدُ مذهبًا واحدا ، ويُنْسَبُ إليه . فإن قيل : كيف حَلَّ لهُ مباشرةُ بعض مدارس الشافعيَّة ، وأَخْذُ مَعْلومِها ، كما سيأتى ، مع كَوْنِ ذلك مُخالِفًا لشَرْطِ الواقِف بها ، وهو لا يجوز ؟ قلتُ : يُمْكِنُ أن يُجاب بأنَّ الشيخ ، رحمه الله تعالى ، كان يَرى أنَّ المدرِّسَ يستحقُّ الجامَكِيَّةَ على معرفة المذهب ، ونَشْرِه إيَّاه ، لا على اعْتقادِه والتعبُّدِ به ، وِفاقًا لما نقلَه الشيخ سراج الدين ابن المُلَقِّن ، فى « طبقات الشافعيّة » ، عن عِزّ الدين بن عبد السلام الشافِعِيِّ .

قال الحافظ السُّيُوطِيُّ فى حقِّ صاحب الترجمة : كان يحُلُّ « الكشّاف » ، و« الحاوى » حَلًّا إليه المُنْتهَى ، حتى يُظَنَّ أنَّه يحفظهما ، ويُحْسِنُ إلى الطَّلبة بجاهِه ومالِه ، مع الدِّين المَتِين ، والتواضُع الزائد ، والعظمة ، وكثرة الخير ، وعدم الشَّرِّ

ولما قدم القاهرة ، استقرَّ فى تدريس الشافعيَّة بالشَّيْخونِيَّة ، ومشيخة البِيبَرْسِيَّة

وكان اسمه عُبيد الله ، فكان لا يرضَى ذلك ولا يكتبه ، لمُوافقتِه اسم عُبَيْد اللهِ بن زياد ، قاتلِ الحسين رضى الله تعالى عنه ، ولعَن قاتلَه .

وكانت لحيتُه طويلة ، بحيث تصل إلى قدمه ، ولا ينام إلَّا وهى فى كِيس ، وإذا ركِب تَنْفَرِق فِرْقتين ، فكان عَوَامُّ مصر يقولون إذا رأَوْه : سُبحان الخالق ، فيقول هو : عَوامُّ مصر مؤمنون حقًّا ؛ لأنَّهم يستدِلُّون بالصَّنْعة على الصَّانع .

أخذ عنه الشيخ عِزُّ الدين ابن جَماعة ، والوَلِيُّ العِرَاقِيُّ ، وغيرُهما

وروَى عنه البُرْهان الحلبِيُّ ، وغيرُه .